(١٨) إدوارد بيلامى : **النظر إلى الخلف ٢٠٠٠ – ١٨٨٧**

بقلم : آرثر ب . دادين

إن فكرة اليوتوبيا التى توحى بإمكان خلق عالم أو مجتمع جديد بهيج رائع فى مكان ما قد سحرت لب البشر مراراً وتكراراً . ويتحتم على أى مجتمع جديد أن يبدو إلى حد كبير أكثر جاذبية لأعضائه مما يوحى به واقعهم اليومى ، وذلك مهما كان هذا التصور مغرقاً فى الخيال ، أو مهما كانت ظروف حياتهم العادية .

إن تطلع الرجال والنساء إلى نظام اجتماعى جديد شجاع يتميز بالرحابة والوفرة والصحة والسعادة والأمل ربما يعبر عما يجيش فى صدورهم كمهرب على سبيل المثال من الازدحام والجوع والمعاناة والعقم واليأس : فالحرب أو الاضطرابات الداخلية تقدم الحلول المؤدية إلى وسائل للحياة أكثر سلمية وقائمة على التآلف الاجتماعى والأخوى ، ومن ثم فإنه ليس من المدهش أن الروايات التى تصور اليوتوبيا كاحتمال يمكن أن يحدث كانت من الكتابات الرائجة بسبب البديل المتفائل الذى يقدمه كتابها عن الظروف الكئيبة التى عادة ما تميز الملامح الراهنة للمكان والزمان .

وربما كانت رواية « النظر إلى الخلف ٢٠٠٠ – ١٨٨٧ » واحدة من أعظم الروايات اليوتوبية الناجحة ، وربما عن حقٍّ أعظمها على الإطلاق بالنسبة للأمريكيين : إنها رواية ذات أبعاد غير طموح كتبها إدوارد بيلامى (١٨٥٠ – ١٨٩٨) [1] . كان بيلامى كاتباً قضى حياته فى صراع مع المرض المزمن الذى قضى على صحته أوكاد ؛ جاء من المنطقة الصناعية فى

نيوإنجلاند الغربية . وعندما نشر هذا الكتاب فى عام ١٨٨٨ أصبح على الفور ظاهرة فى ذاته ، كما أصبح مؤلفه ذائع الصيت بين يوم وليلة .

وعندما ترجم إلى عشرات اللغات انتبه العالم الغربى بسرعة إلى تلك الرواية التى كتبها بيلامى ، فى حين أن الصورة المثالية التى تضمنتها والتى افترضت وجود نظام اجتماعى كامل تم تحقيقه بطرق سلمية من خلال المواكبة العقلانية لعمليات التطور فى التاريخ الإنسانى – هذه الصورة لمست صميم الحركة الإصلاحية فى داخل الولايات المتحدة نفسها . وبالنسبة للنمو الثقافى للشعب الأمريكى فى تاريخه الحديث فإن هذه الرواية تعد وثيقة هامة جديرة بالدراسة وذلك بصرف النظر عن قصورها الفنى الكامن فيها .

لا تعد « النظر إلى الخلف » عملاً عظيماً كتبه مؤلف عظيم ، لكنها نتاج غريب ومخيف لعبقرية خام . ومثل الفن البدائى الحديث بصفة عامة فإن عمل إدوارد بيلامى هذا الذى بلغ أقصى آفاق الشهرة إنتاج شخصى بطبيعته إلى حد كبير .

ويبدو من المؤكد أن أى إنسان يقيم فى جنة أرضية لم يكن ليرغب فى خلق عالم أفضل . والرجل الحساس الذى يجد نفسه فارا فى رعب من بيئته كما فعل بيلامى عندما فر من المظاهر الوحشية المتغلغلة للتصنيع – قد يتخيل بوضوح تام أنه يمكن بطريقة ما أى مجتمع أن يزدهر وقد تحرر من المصاعب وتخلص من المظالم . وبالنسبة لرجل مثل هذا عاش فى أواخر القرن التاسع عشر فإنه كان من المنطقى أن يتوقع أن الآمال التى عقدت على التصنيع ولم تتحقق بعد يمكن أن تتحول فى يوم ما إلى عنصر طيب حقيقى وملموس . وعلى هذا الأساس يمكن بيئة إنسانية جديدة تماماً أن تخرج إلى حيز الوجود ، إنها فى ذاتها مجتمع يوتوبى أكثر بهراً – عندما نتأمله – من تلك التكنولوجيا الجديدة .

وقد نهض إنجاز بيلامى على تصوره الدقيق للكيفية التى يمكن اليوتوبيا الاشتراكية أن تولد منتصرة من باطن أحوال المجتمع الصناعى المتزايدة فى السوء ؛ فمن الواضح أن بيلامى كان يهدف إلى اعتناق الاشتراكية . إن قصته التعليمية البسيطة قدمت المنهج كما يراه ، وبالقدر نفسه قدمت رؤية مستقبلية جذابة لقرائها .

ورواية « النظر إلى الخلف » من وجهة النظر العادية للجدلية الحتمية وبما تتضمنه من المثالب الضخمة للمجتمع الأمريكى عند ختام القرن التاسع عشر وفى عام ١٨٨٧ على وجه الدقة ، فإن هذه المثالب قد تحولت إلى الإنجازات المجيدة فى القرن العشرين عند اقتراب ختامه : أى

بعد مائة وثلاثة عشر عاماً .

وعلى أية حال فإن قراء اليوم سيعلمون مقدماً وبمنتهى الدقة أن القرن العشرين يقدم دوامات رهيبة لا تنتمى إلى سواه ، وسيعلمون تماماً أن اليوتوبيا أصبحت نائية كما كانت تماماً على الرغم من التحقيق التكنولوجى لقدر كبير من حلم بيلامى .

يحدد بيلامى ملامح اليوتوبيا التى يصورها من خلال عدد من الانطلاقات الخادعة إلى المستقبل حتى يصل إلى عام ٢٠٠٠ لكى يكشف لنا عن المستقبل فى تناقضه مع اللحظة الراهنة : أى عام ١٨٨٧ حين يفتتح قصته ، وهو العام الذى يعود إليه من حين لآخر عن طريق العود إلى الماضى (الفلاش باك) . إنه يدعو قراءه لكى يشهدوا معه هذا الأمل البراق المعقود على الوجود الحقيقى فى هذا الكون ؛ ثم يعود بهم لكى ينظروا إلى الخلف من نقطة الامتياز المستقبلية التى اكتسبوها حديثاً ، وذلك على سبيل تذكرتهم بالظروف الكئيبة العصيبة التى تميز حياتهم الفعلية . وفى الوقت نفسه فإنه يدعو الواحد والكل لكى ينضموا إليه فى تمهيد الطريق لقرن التقدم الباهر .

إن جوليان ويست الذى تتجسد فيه أرستقراطية بوسطن العريقة – إنما هو بمثابة الشخصية التى يتم استزراعها فى الرواية لكى يكتب مسترجعاً تجاربه . وفى استعارة مشهورة لبيلامى يقول : «لا أستطيع أن أفعل شيئاً أفضل من مقارنة المجتمع فى ذلك الوقت بعربة غريبة مدهشة حشرت فيها الكتل البشرية وهى تتصارع محاولة الصعود فى إجهاد بالغ على طريق زاخر بالتلال والرمال ! » وعلى قمة هذه العربة المرعبة وبعيداً عن قذارة الحياة وبؤسها تقبع فى أمان طبقات المجتمع التى لا تنتج شيئاً فى حين أنها تتمرغ فى الرفاهية الناتجة عن كدح الرجال والنساء ذوى الحظ الأقل . مثل هذه المواقع الأثيرة كانت مطلب الجميع إلى حد كبير . وكنتيجة لذلك شعروا بأعلى درجات انعدام الأمان . «ومن الطبيعى أنهم اعتبروها نوعاً من الكارثة الرهيبة أن يفقد الإنسان مقعده أو موقعه . وكان إدراكهم لأن هذا يمكن أن يحدث لهم أو لأصدقائهم بمثابة سحابة قاتمة خيمت على سعادة هؤلاء الذين تُقِلهُم العربة » ، لكن جوليان ويست يسأل فى بلاغة : «هل كانوا يفكرون فقط فى أنفسهم ؟ ألم يحملوا فى قلوبهم أى تعاطف مع شركائهم فى الإنسانية الذين لم تميزهم عنهم سوى ثروتهم ؟ » .

ويجيب جوليان ويست عن سؤاله بقوله : « نعم ! لقد عبر مراراً الذين يركبون فوق القمة عن رأفتهم بالذين كتب عليهم أن يجروا العربة ؛ كما كان دأبهم دائماً وخاصة عندما تكون

العربة فى طريقها إلى صعود تل منحدر ! فى مثل هذه الأوقات ترتفع أصوات الركاب مشجعة الكادحين فى شدهم للحبل ، وتحثهم على الصبر وتبث فيهم الآمال بتعويض محتمل فى عالم آخر بدلا من المشاق التى يعانى منها أمثالهم ، فى حين لجأ بعض آخر لشراء المراهم والبلاسم للعاجزين والمصابين ! ».

ويشرح جوليان ويست هذا بقوله : « لقد اتفق على أنه من المؤسف أن تكون العربة بهذه الصعوبة عند جرها ، وكان هناك إحساس بالارتياح العام عندما تغلبوا على المنطقة الوعرة بالطريق بصفة خاصة . لكن هذا الارتياح لم يكن بالطبع عاما بالنسبة للفريق ككل ، فقد كان هناك دائماً خطر ما فى هذه الأماكن الوعرة التى يمكن أن تؤدى إلى انقلاب عام يمكن أن يفقد فيه الجميع مقاعدهم ! »

أما الذى يبدو كما لو كان سادية متعمدة فقد كان فى الواقع الخطأ غير الشخصى الكامن فى نظام الرأسمالية الصناعية والملكية الخاصة . ومن خلال ويست يشرح بيلامى أن ويست قد أدرك :

« أنه فى المقام الأول اعتقد الناس بجزم وصدق أنه لم تكن هناك طريقة أخرى يمكن أن يتحرك بها المجتمع سوى أن الكثيرين عليهم أن يشدوا الحبل فى حين يركب القليلون . ليس هذا فقط بل إن الإصلاحات الراديكالية نفسها كانت ممكنة سواء فى اللحام أو فى العربة أو فى الطريق أو فى توزيع الجهد الشاق . لقد ظلت دائماً هكذا وستبقى على هذه الحال أيضاً . لم يكن هناك مفر من ذلك مع الأسف ، والحكمة تمنعنا من إضاعة عواطفنا وإهدار شفقتنا على ما لا يمكن علاجه . » .

وفى المقام (الثانى) ساد هذيان فريد فى نوعه شارك فيه الذين يقبعون فوق قمة العربة وهو « أنهم لا يشبهون إخوتهم وأخواتهم الذين يشدون الحبل ؛ لأنهم من طينة أفضل ، وبطريقة ما ينتمون إلى نوع أرقى من البشر الذين من العدل أن نتوقع لهم أن يقوم الآخرون بشدهم » طبقاً لكلام ويست الذى يلاحظ بدقة أن « تأثير مثل هذا الخداع على سبيل تخفيف تعاطف الرفاق مع آلام الكتل البشرية وتحويله إلى عاطفة نائية متشحة بأردية الفلسفة والحكمة تأثير واضح » .

وفى الوقت نفسه فإن ذوبان رءوس الأموال الصغيرة والمشروعات الخاصة فى المؤسسات والاحتكارات التى هى أكبر استمر بلا أى عائق . هكذا وصف دكتور ليت التطورات السائدة حتى عام ٢٠٠٠ بصفته مرشداً لويست وهو نفسه يمثل النغمة اليوتوبية المكملة لجوليان ويست .

فلقد اتسعت الفجوة الاجتماعية بلا أمل فى سدها بين القلة المحظوظة والأغلبية المنكودة .

ويسترجع دكتور ليت ذكرياته فيقول : إنه « فى الولايات المتحدة لم يكن هناك بعد بداية الربع الأخير من القرن (التاسع عشر) أية فرصة على الإطلاق للمشروعات الفردية فى أى مجال مهم للصناعة إذا لم تنهض على رأسمال ضخم . وعلى الفور أصبحت عملية التركيز هذه مطلقة . وقد استسلم أصحاب المشروعات الصغيرة بتركهم المجال لتجمعات رأس المال والصناعة الضخمة . ويبدو أنه لم تكن هناك ثمة طريقة أخرى لاستعادة المساواة فى ظل هذه الظروف ، وهى المساواة التى احترمت لمدة طويلة كنموذج لنظام أفضل ساد فى عصر سابق بدون التضحية بالتقدم المادى الذى يتطلبه عصر الحديد والبخار والبرق والقاطرات السريعة .

ولاحظ دكتور ليت - مستمرا فى شرحه التاريخى لجوليان ويست - أن « سجلات تلك الفترة تظهر أن الصرخة ضد تركيز رأس المال كانت عارمة . فقد اعتقد الناس أنه يهدد المجتمع بشكل من الطغيان أكثر فظاعة من أى نوع آخر احتمله من قبل . كان إيمانهم أن المؤسسات العملاقة تعد نير عبودية أكثر انحطاطاً من أية عبودية فرضت على البشر ! إنها ليست عبودية للرجال بل لآلات لا روح فيها وغير قادرة على ممارسة أى دافع سوى الجشع الذى لا يشبع ! » .

أليس هناك مهرب من هذا ؟ مما يثير الدهشة أنه يوجد هذا المهرب . ومما يثير الدهشة أكثر مع تتابع مراحل النمو أن هذا المهرب يتطلب مجرد فهم الدلالة الحقيقية للتطور التاريخى ؛ لكى يتوقف الناس عن الصراع الذى لا جدوى منه ضد نظام التكنولوجيا الآلية واتجاهها الطبيعى صوب الترسيخ الصناعى . وبدلا من الإصرار على إقامة المجتمع على الأنانية الفردية غير المسئولة - لابد من إنشاء كومنولث تعاونى بلا أدنى تسويف .

ويختم دكتور ليت حديثه وشعوره بالانتصار يأخذ بمجامع قلبه فيقول : « أخيراً وفى مرحلة متأخرة - بدرجة تثير الاستغراب - من تاريخ العالم - أدرك الناس الحقيقة الناصعة : أنه لا يوجد عمل طبيعته عامة بالضرورة مثل الصناعة والتجارة اللتين يعتمد عليهما الناس فى معيشتهما ، وأن الوكول بهما إلى الأفراد بصفة شخصية لكى يقوموا على إدارتهما من أجل الربح الخاص - حماقة مشابهة فى النوع لتلك التى أدت إلى تسليم مهام الحكومة السياسية إلى الملوك والنبلاء لإدارتها من أجل أمجادهم الشخصية . وذلك على الرغم من أن احتكار الصناعة والتجارة أضخم وأعتى كثيراً من حكم الملوك والنبلاء ! » .

وما يثير الدهشة أكثر من أى شىء آخر – أن هذا التغيير المذهل استطاع أن يثبت وجوده بدون إراقة ضخمة للدماء أو تقلبات عنيفة ؛ لأن الشعور العام أدرك أن عملية الترسيخ الصناعى ليست سوى مرحلة انتقالية فى تاريخ التطور تجاه نظام سياسى عادل . لقد انتهى عصر الاحتكارات بوضع الميزانية القومية العظمى تحت السيطرة الشعبية . ويقول دكتور ليت على سبيل الاختصار والتركيز : « وفى كلمة واحدة فإن شعب الولايات المتحدة وصل إلى النتيجة التى تشكل سلوكه فى إدارة عمله تماماً ؛ كما حدث منذ مائة عام من قبل عندماحدد سلوك حكومته ، بحيث يقوم الآن بتنظيم أهدافه الصناعية على الأسس التى نظم عليها نفسها أهدافه السياسية من قبل » .

لقد كانت خشونة المجتمع الصناعى مصدراً لعذاب إدوارد بيلامى . فكان يصور العمال والعاطلين بقوله : إن مجرد « منظر أطفال البؤس يشيع الإحساس بأنهم عجائز بؤساء على الرغم من سنهم الغض ! » وكان هذا بالنسبة له دليلا على وجود خطأ عظيم فى مكان ما فى نظام الأشياء ، ولم يكن من الممكن اكتشاف العقلانية أو العدالة فى مجتمع متشعب بهذا الشكل حوله . من هنا كان ابتكاره لعالم مثالى لكى يقدم الإطار الذى يحتوى آماله فى الإصلاح الاجتماعى . ولا تقع اليوتوبيا الخاصة به فى مكان ناء جداً أو فى زمن موغل فى البعد ، بل تقع بأسلوب مغر فى داخل الحدود المعتادة لمدينة بوسطن ، ولا تنطلق إلى المستقبل بأكثر من قرن سوى سنوات قليلة .

وإذا استطاع جيرانه إدراك أبعاد حيرتهم فإنهم يستطيعون تحقيق خلاصهم ، وإذا لم يكن من أجلهم فليكن على الأقل من أجل حفدة حفدتهم أو بالتأكيد من أجل حفدة حفدة حفدتهم !

هكذا يمكن تحقيق أمل اليوتوبيا العظيم بحلول عام ٢٠٠٠ ، فى حين أنه من أجل الحبكة الروائية عند بيلامى فإن بوسطن سيعاد ميلادها كمدينة سماوية فى المستقبل . وقد تم توصيل رسالة بيلامى روائيا من خلال متحدثين اثنين باسمه : جوليان ويست ودكتور ليت : فقد قام جوليان ويست بسرد أسلوب الحياة كما كان فى عام ١٨٨٧ فى حين أخذ دكتور ليت على عاتقه وصف وشرح الأحوال القادمة مع عام ٢٠٠٠ .

ومن خلال الحواديت الرومانسية التى تعد ساذجة ولا طعم لها على الإطلاق حتى بمقاييس العصر الفيكتورى نقابل سيدتين شابتين تشتركان بالصدفة فى اسم واحد : إيديث (إيديث

بارتليت وإيديث ليت ابنة الدكتور الطيب) ومهمتهما أن تجنبا السيد ويست معاناة الاضطراب العارم الذى يهدده نتيجة لنومه غير العادى الذى أدى إلى كارثة ضياع ذاته .

وسيجد قارئ اليوم صعوبة فى قياس أهمية رواية إدوارد بيلامى « النظر إلى الخلف » أوحتى فى شرح السر وراء رواجها فى عصرها . على كل حال فقد ظهرت « النظر إلى الخلف » لمدة خمسين سنة أو أكثر فى القوائم التى جمعها الناشرون والنقاد الأمريكيون للكتب العظيمة التى تعد كتباً لكل العصور ، وأقبل على قراءتها بحماس جيل من المصلحين عقد الأمل على التغيير الاجتماعى بدون انقلابات دموية . مثل هؤلاء القراء لم يختلفوا حول « النظر إلى الخلف » بصفتها مرشداً دقيقا للمستقبل . وكما أدرك الفيلسوف جون ديوى فإنه لم يكن نموذج بيلامى لليوتوبيا ، بل إدانته للرأسمالية هى التى أوحت للمصلحين تصور إمكان أنظمة اجتماعية أفضل قبل تحديد الوسائل الكفيلة بتقديمها . وبالرغم من راديكالية الوسيلة اليوتوبية نفسها فإن « النظر إلى الخلف » تعكس الروح المحافظة الكامنة فى المجتمع الأمريكى الذى بنى لترسيخ وتأكيد قيمه وتقاليده الوطنية المحلية .

بهذا يبرز لنا السر فى شعبية « النظر إلى الخلف » . فلا خليج عظيم لا يمكن عبوره ويفصل البشر الطيبين الذين يعيشون فى يومنا هذا عن خلفائهم القادمين مع الغد . فبين أهالى بوسطن ذوى الأحوال المضطربة فى عام ١٨٨٧ والمواطنين السعداء فى عام ٢٠٠٠ امتد طريق عريض زاخر بالتوجيهات المتفائلة . وقد صنف الأستاذ جون ل . توماس من جامعة براون « النظر إلى الخلف » عن حق كتعبير عن الاتجاه المحافظ فى أمريكا ، فلاحظ « أنها أعادت تأكيد الاعتقاد فى نظرية أمريكية بحتة للتقدم بحيث دعمتها من خلال فلسفة جديدة تستمد مضمونها من استيعاب حقائق الترابط العضوى لوظائف المجتمع وحقائق التاريخ .

وعلاوة على ذلك فإن الكتاب يعيد تأكيد أولية الإصلاح الأخلاقى التدريجى طبقاً للأسلوب الأمريكى ، ويساعد فى ربط نظرية الكمال التى نادت بها الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية ، قبل الحرب الأهلية بالتطلعات الأخلاقية للتقدميين . وبصفتها نصا أساساً فى إنجيل الحركة الاجتماعية فقد أكدت بأسلوب قوى بدرجة غير عادية المضمون المسيحى للفكر الاجتماعى الأمريكى وبدرجة أكثر خصوصية فكرة الإصلاح كمنهج أخلاقى موجه صوب التغيير والتجديد »

وقد ساعدت رواية بيلامى على خلق إحساس متجدد بالرسالة القومية.أما بالنسبة للقراء

سواء فى خارج أمريكا أو فى داخلها فإن « النظر إلى الخلف » كانت استعادة أخلاقية لرؤيا الأرض الموعودة ، وهى الرؤيا التى تشكلت فى أمريكا من خلال العبودية وحديثاً من خلال مظالم العصر الصناعى . ومثل الأدوية التى روجتها الإعلانات فى عصر بيلامى فإن دواءه وعد بالأمل لكل شىء والخلاص لكل شخص !

وقد ضرب إدوارد بيلامى على أوتار حساسة عند مواطنيه . وبلا شك فإن تصويره لعالم مثالى عكس تطلعاته الخاصة لعالم منظم جيداً وخال من الكدر والألم ، وكما أوضح كاتبو سيرته فقد أراد حياة زاخرة بالأمل والرضا بدلا من السقم والمرض والحقارة واليأس . لكن « النظر إلى الخلف » جسدت أكثر من شطحات مؤلفها الخيالية : فقد ربط بيلامى بين إدراك مواطنيه الأمريكيين للدور الذى قامت به الرأسمالية المتكتلة فى إغلاق أبواب الفرص التى تتيحها لهم ديمقراطيتهم وبين تطلعاتهم لميلاد روحى جديد ، وإصلاح أخلاقى ، وتقدم مادى .

لقد أراد هو وقراؤه الثروة لأنفسهم والوجود اللائق لكل البشر ، لكنهم لم يرغبوا فى هجر أى من قيمهم وتقاليدهم المفضلة الأثيرة فى مجال تحقيق الذات .

أرادوا زيادة وترسيخ تراثهم الثمين فى مجال الحرية والديمقراطية ولم يسمحوا له بالانزواء بعيدا . كانوا فى حاجة إلى تأمين تجديدهم الروحى ضد خطر الهبوط إلى جحيم البربرية الصناعية . وقد تعلق خلاصهم بالآلة أكثر من اعتماده على الصليب ، وأصبح ممكناً لجنتهم أن تولد على الأرض بدلا من السماء ! وهذا المنهج عملى تماماً فى مواكبته للتطور التاريخى والنظام الصناعى . وإذا فشلوا فى استيعاب خطر هروبهم الإرادى من الحرية إلى مذهب شمولى مريح – فإن هذا نتيجة لمرارة ظروفهم الراهنة وإلحاح تطلعاتهم إلى إحياء الآمال وتجديدها .

وقد اتفق بيلامى أساساً مع صيحات النقد الرئيسة فى وجه المجتمع الأمريكى . وأن المشكلة المحورية للعصر كانت اجتماعية أكثر منها سياسية ، وتمثلت خاصيتها الأساس فى الميل المتزايد تجاه عدم المساواة . وشخص هنرى جورج هذه الأعراض بأنها موازية للميل نحو التقدم والفقر . فى حين شخصها هنرى ديمارست لويد – بصفته معاديا للاحتكار وموجهاً أصبع الاتهام تجاه شركة ستاندرد أويل – بأنها الصراع بين الثروة والكومنولث أو الثروة العامة . أما من جهة بيلامى فإننا نعرف من استعارته التى اتخذت من العربة مضمونا لها أن المبدأين المتصارعين اللذين يطفوان على السطح عنده – هما الأرستقراطية والديمقراطية . كل هؤلاء

النقاد اتفقوا مع بيلامى على أن « المرض المزمن » كان كامناً فى الحضارة الأمريكية .

مثل هذه التحليلات بما فيها تحاليل بيلامى اتفقت بأسلوب سطحى مصطنع مع ما يسمى بعمق البصيرة العلمية للماركسيين . وكان التصنيع نفسه بمثابة قوة محفزة للميل الواضح الذى لا يقاوم تجاه تركيز الثروة فى أيدى أصحاب وسائل الإنتاج .

وبدلا من تنظيم مجال السوق بأسلوب صحى فإن المنافسة اشتعلت مثل الحرب المحلية بين عمالقة دنيا المال . ومن ثم فقد نتجت القوة السياسية عن القوة الاقتصادية . وتمكن الرأسماليون من تأجير الحكومات لكى تحمى ملكيتهم وتساندهم فى استغلالهم للعبيد وأجراء الأرض !

كتب بيلامى يقول :

« إن الأغنياء جداً يستطيعون فرض شروطهم على وكلاء أعمالهم أو عملائهم ، وهم يقومون بهذا كقاعدة ؛ لكى يحققوا أرباحاً طائلة » وإذا كان يتحتم على الرأسماليين الكبار أن تكون لديهم السيطرة الكاملة – فإن الديمقراطية الأمريكية عندئذ ستندثر وسيحل محلها طغيان بلوتوقراطى يتمثل فى أصحاب الثروة ذوى الامتيازات !

وقد رفض إدوارد بيلامى وزملاؤه من الفلاسفة الاجتماعيين الحتمية الاقتصادية التى ينادى بها الماركسيون على أى وضع من الأوضاع . وعلى النقيض من الماركسيين فإن بيلامى وجورج ولويد وغيرهم من الذين ينتمون إلى الفكر نفسه لم يستطيعوا قط إلغاء العوامل الأخلاقية على أساس أنها مجرد أوهام بورجوازية . وبالطبع فإن انشغالهم بأخلاقيات الرأسمالية قد أمد فكرهم بتفضيل مسبق للانقلاب ونفحة أخلاقية ملحة لجدلهم . ولم يكن بيلامى ليفضل أية نظرية اشتراكية تهدف إلى إقامة اتحاد صناعات ، وللحصول على عمالة دائمة للجميع فإنه يتحتم تنظيم كل من رأس المال والعمل ، ولا يوجد سوى « الوطنية » – التى يعتبرها نظامه الذى ينادى به – أنها يمكن أن تحقق هذا .

ووطنية بيلامى كما تبرز من « النظر إلى الخلف » ومن أعماله المتتالية تشبه رأسمالية الدولة التعاونية التى تفوق خيال أى أحد أكثر من أى شكل من الأشكال العادية للاشتراكية على الرغم من أنها تشترك فى عدد من المفاهيم الاشتراكية ووصفت عموماً بأنها اشتراكية حتى شيوعية بالمعنى الذى ساد فى فترة ما قبل البلشفية .

وقد اتفق بيلامى مع الاشتراكيين فى أن الصراع الطبقى سينتهى فقط مع تثبيت وسائل الإنتاج وتوزيعها بالدولة : فإذا كانت الدولة تملك فقط القوة السياسية فسوف يطيل هذا من

استسلامها لمصالح المال والاحتكار الخاص ، وفى الوقت نفسه سيحول هذا الطبقة المتوسطة إلى طبقة البروليتاريا فى حين أن الطبقة العاملة ستنجرف إلى حافة الموت جوعاً ! وأصبح بيلامى يؤمن بأن توزيع ثمار العمل لابد أن يتم على قدم المساواة المطلقة وأصبحت المساواة بالنسبة له ضرورة أخلاقية ومثلا أعلى يلهم الأمريكيين ويرشدهم ، وابتعدت كثيراً عن وصف توكفيل الكلاسيكى للحياة فى الولايات المتحدة بصفتها حالة من المساواة المحددة الملموسة .

وتعنى الوطنية عند بيلامى المجتمع الذى يستخلص بمهارة كل الإمكانات ويستفيد بكل الطاقات الكامنة فى كل فرد ولا يكافئ كل إنسان ببساطة طبقاً لاحتياجاته ، ولكن بناء على رغباته . إن الحياة التى يقضيها صاحبها فى الإنتاج الوافر والاستهلاك الكثيرمكفولة فى ظل مبادئ المساواة التى تطبقها الدولة : فتخزين السلع كهدف فى ذاته ليس محتمل الوقوع إطلاقا طالما أن فى إمكان أى شخص أن يحصل دائماً على ما يريده حقيقة بمجرد طلبه من المحال العامة أو المخازن التموينية .

ويؤكد بيلامى أن القومية شكل من العقيدة فى الواقع ، إنها تتطلب من أتباعها الشعور بقداستها . وتنهض الوطنية على القانون الاقتصادى ومبادئ التعاون المسيحية والتعاون يقف فى صف معارض تماماً لمبادئ المنافسة التى يعتبرها بيلامى اسما آخر للحرب الحقيقية ؛ كما تعدى التعاون حدود مبدأ الإخاء بمسافات بعيدة وكان التعاون بالنسبة لبيلامى من الأهمية القصوى بمكان لدرجة أنه إذا حتم الحصول عليه التضحية بالاعتبارات المادية — فإن الوطنى الحقيقى سيبحث عن هذه التضحية قبل أى شىء آخر !

وفى الحقيقة إن رواية إدوارد بيلامى « النظر إلى الخلف » أسطورة دينية !

وتبدو « النظر إلى الخلف » مكونة من قصتين منفصلتين وتقريباً لا علاقة بينهما : معجزة بعث جوليان ويست عام ٢٠٠٠ ، والسرد الذى يقدمه له مرشده الروحى دكتور ليت والذى يدور حول خلق وإدارة فردوس المستقبل . وقد وظف بيلامى أداة الخيال الجامح فى كسب الاعتراف بالحاجة إلى الإصلاح الاجتماعى واستخدم منطقاً معسولاً فى جدله ، ليؤكد إيمانه بأن المسرات المادية والثقافية فى متناول يده ، لكنه فى الوقت نفسه عمل على إعداد قرائه لدراما التحول السيكلوجية كثمن مطلوب للدخول فى أورشليم الجديدة !

ويتكشف لنا جوليان ويست بصفته سجيناً بإرادته فى مجتمع الطبقة العليا الحقيقى فى

بوسطن عام ١٨٨٧ . واتضح منذ البداية أن الأزمة الصناعية والاجتماعية المعاصرة له كانت نتيجة للكبت الأعمى الذى مارسته طبقة جوليان من الأرستقراطيين . وكانت آخر أمسية له قبل استغراقه فى هذيانه الحالم الذى انتقل فى أثنائه إلى المستقبل قد قضاها فى منزل خطيبته حيث أكد رفضه العام للطبقة العاملة . وعند عودته إلى منزله يأوى إلى غرفة نوم تحت سطح الأرض ومغلقة بالشمع ، وذلك على سبيل الهرب من شخصيته المغلقة المنعزلة ومن الأرق الذى يعانى منه ؛ فقد كان جوليان ميتاً من الناحية الروحية والرمزية بحيث قبع داخل مقبرة من صنعه ! ولم يكن هناك خيط يربطه بالحياة سوى وسائل التنويم المغناطيسى وحياته المتوقفة مؤقتاً !

وبعد مائة وثلاثة عشر عاما يستيقظ جوليان ويست ؛ ليكتشف بهاء بوسطن الشجاعة الجديدة عند قدميه ! وتتفاعل رؤيا اليوتوبيا والنشوة التى تثيرها رحابة المدينة بحيث يشعر بحرية أكبر وحافز أقوى من أى وقت مضى ؛ وفى هذيانه يشعر لأول مرة فى حياته بالتعاطف النابع من قلبه تجاه الناس .

وعلى أية حال فإن نشوة الهروب من العبودية سرعان ما تترك مكانها لإحساس متكاثف من الرعب عندما يبدأ جوليان ويست فى إدراك مصيره : فعند انعزاله فى هذا العالم المغترب وجد كيانه يتحلل أمام عينيه إلى ازدواجية مرعبة من الانفصام النفسى . إنه يصيح فى حزن عظيم : « لا كلمات يمكن أن تعبر عن العذاب العقلى الذى تحملته فى المحاولة اليائسة العمياء للاحتفاظ بكيانى فى هباء لا حدود له ! فليس هناك تجربة عقلية من المحتمل أن تقدم شيئاً مثل الإحساس بالقيد الفكرى المطلق كنتيجة لضياع المحور العقلى ؛ إنه نقطة البدء فى مجال الفكر تأتى فى أثناء لحظة انطماس مؤقتة لإدراك الإنسان لشخصيته المميزة » .

هنا يذكرنا بيلامى أن جوليان ويست – فى حقيقته شخصيتان ! وهو ما ينطبق فى الواقع على كل واحد منا : أى هناك ذات تعمل فى الذاكرة وذات أعلى غير شخصية تقف خارج وأعلى التجربة . وتأتى النقطة الرئيسة فى « النظر إلى الخلف » فى قسم بعنوان « عقيدة التضامن حيث يربط بيلامى مشكلة المجتمع بالبحث عن التضامن عبر ممارسة الوجود اللاشخصى . وقد استطاع جوليان ويست أن يقوم بقفزة الوعى تلك من أنانيته السابقة إلى التحرر من ماضيه المذنب اعتماداً على حب ابنة دكتور ليت له : فمن خلال رعايتها الحانية له يتقمص الحالة اللاشخصية بدون إحساس بالإحباط ويستعيد حياته القديمة بهدوء واستقرار . عندئذ يصبح

مستعدًّا لتلقى تعليمه فى التضامن أو « الوطنية » كما هى معروفة فى اليوتوبيا ، ويستوعب نظريات دكتور ليت المهذبة بكل عرفان للجميل ، وتهل ذروة هذا التحول المتحفز عبر أحد الطقوس التى ينقلها المذياع والتى يقرظ فيها الخطيب التحول القادم لكل البشر والذى بدأ بالفعل بالتجديد الذى قدمته الأمة الأمريكية .

ويعود جوليان ويست حاملا نبوءته الألفية إلى بوسطن فى عام ١٨٨٧ فى كابوس لا يحمل فى طياته سوى الهذيان . ويحاول عبثا أن يقنع أصدقائه القدامى بحقيقته اليوتوبية . يقول : « مازلت أحاول جاهداً معهم حتى انهمرت الدموع من عينى وفى حمية الكلام التى اجتاحتنى فقدت القدرة على التعبير من جراء اللهث والنشيج والأنين ! وفى الحال بعد ذلك وجدت نفسى جالساً منتصباً فى سرير فى غرفتى فى بيت دكتور ليت على حين أن شمس الصباح تشرق عبر النوافذ المفتوحة فى عينى » إنها معجزة التحول – أداة بيلامى المفضلة – التى جاءت بالخلاص للخاطئ التائب بإعادته إلى الفردوس مرة أخرى !

ويشرح بيلامى من خلال دكتور ليت فيقول : إن اليوتوبيا يمكن أن تتحقق فى أواخر القرن العشرين مثلما حدث لجوليان ويست ، وذلك عن طريق التحول اعتمادا على تغيير القلب . وطالما أن معظم الأمريكيين قد ظل مغمض العينين مثل جوليان ويست نفسه فإن حضارتهم الصناعية ستستمر فى الانحدار بعنف صوب الانهيار وهى تسحق فى طريقها الأبرياء ! وطالما أن هناك طبقة تستغل أخرى وتتغاضى عن رسالة الإخاء فإن الآلات والاختراعات الجديدة لن تؤدى إلا إلى زيادة حدة مشكلات المجتمع . ولكى يُنقِذ الأمريكيون أنفسهم كان عليهم أن يعتنقوا أولا مبدأ التضامن فقد كان الحقيقة الفريدة التى يمكن أن تقام عليها اليوتوبيا . ويمكن أى فريق صغير من الإنجيليين أن يبرز فى المقدمة لكى يقود المسيرة ؛ فالحقيقة التى يؤمنون بها يمكن أن تتحول إلى نظرية اجتماعية وسوف يؤدى انتصار التضامن إلى جعل كل الأشياء الأخرى من أبسط ما يمكن فيما بعد .

وفى « النظر إلى الخلف » كانت الرؤيا أكثر أهمية بالنسبة لإدوارد بيلامى من الفلسفة الاجتماعية أو من المنهج الذى يمكن أن تتحقق به اليوتوبيا . وكما تطورت الحياة ببطء حتى بلغت وضعها الراهن فسوف تستمر لكى تتسامى إلى أعلى على كل المستويات . وقد تنبأ بيلامى بأن المجتمع الإنسانى سوف ينتقل من الفردية إلى الوعى الاشتراكى . ووراء كل هذا كان يؤمن بأن الجنس البشرى سوف يعود إلى الله فى حين أن « السر الإلهى الكامن فى الجرثومة سيتكشف

تماماً » . وعلى أية حال فإن اليوتوبيا عبارة عن قصر بين السحاب ، لكن بدت « النظر إلى الخلف » للحظة خاطفة من خلال الأطر التى تحيط بالمجتمع الكامل - على هيئة كوخ مريح آمن للبشر العاديين من الرجال والنساء !

ملاحظة

١ - تم نقلها بالنص كما ظهرت لأول مرة مع التغييرات التى تمت فى الطبعة الثانية بالإضافة إلى المقدمة ذات الفكر الثاقب التى كتبها جون ل . توماس ولعل أفضل طبعة لرواية « النظر إلى الخلف » يمكن الحصول عليها هى طبعة مكتبة جون هارفارد التى نشرت فى كيمبردج بماساتشوستس عام ١٩٦٧ .

انظر أيضاً مقالة وولتر تيلر (النظر خلف « النظر إلى الخلف ») فى « عرض الكتب بجريدة النيويورك تايمز » عدد ٣١ من ديسمبر ١٩٦٧ .